دراسات نقدية

في ضوء المنهج الواقعي

تأليف الاستاذ حسين مروه

***

قد تكون او لا تكون ممن يقولون بالواقعية مذهبا في الفن او منهجا في النقد . وفي الحالين لا تملك نفسك من شعور عميق بالاحترام يخامرك وانت تأخذ بين يديك هذا الكتاب « دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي » الذي خرج منذ ايام يحتل مكانه المرموق من واجهة المكتبة الادبية المعاصرة في لبنان .

ينبغي القول ان ليس لحجمه الضخم المؤلف من اربعماية واربعين صفحة من القطع الكبير علاقة بهذا الشعور . وان كان من طبع هذا الحجم ان يحملك ، بداهة ، على الاحساس بالجهد الكبير الذي قد بذل فيه . بل اسم المؤلف ، اولا واخرا ، هو الذي من طبعه دائما ان يوحي اليك بشعور الاحترام . وسواء اكنت ممن يحبون الاستاذ الناقد حسين مروة ام لا يحبونه او يتفقون معه ام لا يتفقون على الخط الذي ارتضاه لنفسه سلوكا في الحياة وفي الفكر ، فانت لا تستطيع ، سواء أكنت هذا ام ذاك ، الا الاعتراف بان اسم حسين مروه يرادف جملة من القيم الرفيعة في اولها الحب العميق للانسان والحرص على الاخذ بالحقيقة العلمية حرصا يشبه الورع ، ثم ذلك الشعور الذي لا بد منه في كل نشاط ذي طابع جماعي ، وهو الشعور بالمسؤولية . ومن وراء ذلك كله وما يتفرع عنه من خصال ، انسان لا يستطيع — حتى لو اراد — ان يتنكب روح العدل والانصاف .

بهذا الرصيد الغني من الخلق اقتحم الاستاذ حسين مروة ميدان النقد في حياتنا الادبية ، فكان من الطبيعي ان يرفع هذا النشاط الادبي الصعب الى مستوى الانسان والحقيقة . واذا كنت اتركز على هذا الرصيد الخلقي منذ البدء فما ذلك الا لانه الاساس في تكوين شخصية الناقد ، ولانه هو الذي يدفعه دائما بوتيرة مستمرة من الدأب الصامت الصابر ، الى اغناء العقل والوجدان بكنوز الثقافة العامة ، وما يتصل منها ، خصوصا ، بقضايا الفكر والفن والجمال .

في الكتاب ست عشرة دراسة تتناول بالنقد نتاجا لخمسة عشر اديبا من لبنان ومختلف الاقطار الشقيقة . والقسم الاوفر ، وهو يبلغ اثنتي عشرة دراسة ، يدور حول نتاج ادبي صدر حديثا ما بين العامين ١٩٦٤ و ١٩٦٥ .

والكتاب يبدأ بمقدمة من خمس صفحات يمكن اعتبارها ، بحق ، مدخلا الى هذه الدراسات ، اذ يركز المؤلف فيها همه على نقطتين رئيسيتين ، كما رايت : النقطة الاولى تختص بمسألة (المنهجية) وضرورتها في النقد . فبعد ان يحدد الاستاذ مروه معنى المنهجية وخصائصها بكونها الاستناد الى « نظرية نقدية تعتمد اصولا معينة في فهم الادب وفي اكتشاف القيم الجمالية والنفسية والفكرية والاجتماعية في العمل الادبي » ، وبعد ان يوضح ما ينبغي ان يتوفر للناقد المنهجي من حصيلة جامعة من المعرفة في شتى ميادين الحياة والمجتمع والنفس الانسانية وعلاقاتها فيما بينها على ضوء قوانين التطور ، فمن ثقافة تتعمق الوسائل التكنيكية في العمل الادبي كاللغة وخصائصها التعبيرية وما الى ذلك ، يعود المؤلف في صدر الصفحة الاخيرة من المقدمة ليؤكد ضرورة المنهجية في النقد باعتباره بحثا عن حقيقة موضوعية خاصة يتضمنها ولا بد ان يتضمنها كل عمل ادبي . ولا بد للبحث عن الحقيقة من منهج فيما هو معلوم .

اما النقطة الثانية وهي جد مهمة في اعتقادي فهي دفع الالتباسات او الانطباعات الخاطئة التي تخامر بعض العقول من مفهوم المنهجية ، اذ يتصورونها عملية ميكانيكية تقفل باب الاجتهاد الشخصي في وجه الناقد او تعفيه من استخدام شخصيته بما تقوم عليها من تفرد في الحساسية والفهم والتذوق والرأي . ومثل هذا التصور غريب جد غريب عن حقيقة المنهجية . انه محض افتراء.

يقول المؤلف : « واول ما ينبغي ان يكون واضحا من امر المنهجية النقدية ، انها لا تستحق هذه الصفة اذا هي قامت على اسس او مقاييس ثابتة ثبوت جمود وتحجر ، وانما تستحق صفة المنهجية حين تكون الاسس والمقاييس هذه ثابتة من حيث الجوهر ، متحركة متطورة متجددة متنوعة من حيث التطبيق ومراعاة الخصائص الذاتية القائمة في كل خلق ادبي ، الى جانب الخصائص العامة المكتسبة من قوانين الحركة الشاملة المرافقة لكل عمل ادبي ذي قيمة فنية ما . »

وفي المقطع الاخير من المقدمة يقدم الاستاذ مروه كتابه الى القارىء بقوله : « انه محاولات متواضعة لتطبيق المنهج الواقعي في الدراسة النقدية ، وهو المنهج الذي اشعر بطمانينة عقلية ووجدانية لانني انتهجته » . وبهذا ندرك ان اهمية الكتاب تنشأ عن كونه محاولة منهجية علمية في نقد اثار الفكر والادب . وهذا يعني ان صدوره في هذه الاونة من حياتنا الثقافية الحاضرة بما تعانيه ، في لبنان خصوصا ، من تشويش وبلبلة وفوضى ، حادث جد مهم يتخذ في تصوري ، صورة لمركب تائه على الغوارب قد امتدت الى دفته ، اخيرا ، يدان مخلصتان لا يعوزهما الشعور بالمسؤولية ولا الوعي ولا المهارة والقدرة .

***

ينبغي ان اقول ، اولا ، اني قرأت الكتاب كله . قرأته بامعان فيما احسب . وثمة فصول منه عديدة ، قرأتها اكثر من مرة واحدة . وليس في نيتي ان اقوم بعرض للكتاب يتريث عند كل فصل من فصوله بما يقتضي الامر من تفصيل . ذلك فوق مستطاعي الان . كذلك لست انوي بالطبع ان ارتجل نفسي ناقدا . ذلك فوق ما اعهد في نفسي من كفاءة. كل ما يسعني فعله هو ان احدد رأيا لي وموقفا من هذه الدراسات النقدية ومن المنهج الواقعي الذي تعتمده . اظن من حقي ومن واجبي ان افعل بوصف كوني واحدا من الذين يمارسون حرفة الكتابة ،وتهمهم جدا قضايا الفكر والفن والادب بالنظر الى خطورة الدور الذي تمثله

هذه الانواع الرفيعة من النشاط البشري في حياة الناس افرادا وجماعات .

ابدأ بموضوع المنهج الواقعي . واراني حريصا على تحديد موقفي منه بسؤال ما انفك يلهب شفتي منذ زمن : ايكون ، حقا ، من المفكرين والكتاب والنقاد ، من يعارض بروح من الجد والمسؤولية والقناعة العقلية ، في استخدام المنهج الواقعي وتبنيه في بحث قضايا الفكر والفن والادب ؟ لست اعتقد . هناك ، مع ذلك ، معارضون . ومنهم من يقف بضراوة موقف الخصم اللدود من هذا المنهج . ولست الان بسبيل الكشف عن اسباب هذه الخصومة . ولكنيلا استطيع الا الكشف عن شيء اخر ، مهم حقا . وخلاصته أن الد خصوم الواقعية ومنهجها العلمي ، لا يترددون احيانا في العودة الى الواقعية هذه ، وبالتالي الى منهجها العلمي بالذات ، يسألونها العون الثمين على الفهم الموضوعي الصحيح واستنباط الحلول الواقعية الصحيحة فعلى تعيين المواقف السليمة التي ينبغي أن يتخذوها . وهذا لا يحدث بالطبع الا فيظروف حياتهم العملية ، حين تطرح الحياة بين ايديهم مشكلة من مشاكلهم الخاصة او مشروعا يتوقف عليه امر معاشهم اليومي او يتعلق بمصالحهم الاقتصادية بوجه عام . لكن هذه النزعة الواقعية الفاضلة بمنهجها العلمي القادر لا تلبث ان تختفي بغتة من عقولهم والعيون فور ما ينتقلون الى عالم الفكر والفن والادب . وليس لهذا ان يعني غير الازدواجية ، كما يعني في الوقت نفسه انهم يرفضون ان يحملوا ، حيال هذا العالم الانساني الرفيع – ان لم يكن الارفع – ما يحملونه تلقائيا في حياتهم العملية من روح المسؤولية حيال مشاكلهم ومصالحهم .

اظن هذه السطور تتضمن تحديدا لموقفي من الواقعية ومنهجها العلمي .

***

يبقى ان انتقل الى المحاولة التطبيقية الناجحة التي حققها الاستاذ حسين مروة في كتابه القيم . وما اظن من ضرورة هنا تحملني على اضاعة وقت القارىء في سرد تفصيلي مرهق للانطباعات الذاتية والافكار الموضوعية التي خرجت بها من الكتاب . انها كثيرة بالفعل . حسبي اذن ان اكشف عن خطها الرئيسي العام .

ابدأ بالقول ، على سبيل التمهيد ، بان الناقد الاصيل الجاد لا بد له من هم يحمله بمثابة دافع يدفعه الى تركيز ادراكه على الشيء الرئيسي الاهم الذي ينبغي ان يستخلصه من الكتاب او العمل الادبي ، موضوع النقد . فما هو الهم الذي يحمله الاستاذ حسين مروه ؟ وما هو الشيء الرئيسي الاهم الذي بحث عنه في الاثار التي تناولها بالنقد؟

عن الهم نقول اولا وبكل اطمئنان بانه هم حياتي نابع من صميم الحياة الواقعية ، فمن صميم اخلاق الناقد وثقافته ومن وعيه، خصوصا، على وظيفة النشاط الفكري والادبي الفني في المجتمع . اما الشيء الرئيسي الاهم الذي يبحث عنه فيعينه له المنهج العلمي الذي يعتمده ، بكونه الموقف الحياتي والايديولوجي الذي لا بد لكل مفكر واديب وفنان ان يتخذه ، واعيا او غير واع ، من العالم : طبيعة ، فمجتمعا خصوصا ، بكل ما يزخر به هذا المجتمع من احداث واوضاع ومنجزات واخلاق وافكار ، منظورا اليها بالطبع مـــن خلال اتجاهها علـــى خط التطور بوجهيه المتناقضين السلبي والايجابي .

اراني اقول سلفا بان هذا التقرير الموضوعي قد لا يحظى برضى فريق من مفكرينا وادبائنا وفنانينا الموهوبين حقا . ولكن ماذا نفعل اذا كان للفكر والفن والادب نفوذ فعال في حياة الناس والمجتمع ؟ هل نتجاهل هذا النفوذ ارضاء لهم ؟ وماذا نفعل اذا كانت الحياة ، مذ كانت الحياة ، تجري في تطورها الدهري على خط ديالكتيكي الاتجاه من ارتداد تقهقري الى وراء واندفاع تقدمي الى امام ، ودائما ينتصر هذا الامام بكل ابعاده المستقبلية كما يؤكد التاريخ ؟ ماذا نفعل ؟ هل نتجاهل هذا الخط الديالكتيكي الصارم الحاسم فنتصور الكون والحياة والمجتمع مجرد تراكم لاحداث تدور في حلقة مفرغة الى ابد ؟ هذا مفهوم خاطىء جدا وعتيق جدا حتى الرثاثة ، فما ينبغي للمفكرين والادباء والفنانين المعاصرين ، واهل النزعة الحديثة منهم على الاخص ، ان يحملوا في اذهانهم وعيونهم مثل هذا المفهوم السخيف الرث . فمن المؤسف والمؤلم جدا ، اعمق ما يكون الاسف والالم ، ان تنهدر مواهبهم وطاقاتهم الابداعية – وهي تبلغ في بعض اللمحات والالتماعات حدود العبقرية – في صحارى العبث الفارغ والرثاثة التي اكل الدهر عليها وشرب .

***

نعود الى دراسات الاستاذ حسين مروه ننظر في امرها على عجل، ولكن بعمق وتركيز ، في ضوء الهم الحياتي الذي يحمله فالمواقف الحياتية والايديولوجية التي قد سعى الى البحث عنها بكل موضوعية، في ما درس من كتب ، وقد ظفر بها حقا وعينها بحقيقتها .

استطيع ان اجمل رأيي الخاص في هذه الدراسات بقول اجمالي فحواه ان هذه الدراسات قد نهضت بالتطبيق للمنهج الواقعيمنالزاوية المعينة التي تهم المؤلف ، قمة شامخة بلا ريب . فبأي نجاح ، بأي منطق علمي مقنع قد وسع الاستاذ حسين مروه ان يدحض المزاعم التعسفية اللاعلمية التي قال بها العقاد وقال بها الدكتور النويهي في دراستيهما لنفسية الشاعر العباسي ابي نواس . وبأي صفاء ذهني وتعمق في قضايا الفكر الفلسفي ... باية خطى واثقة وهادئة افتحم استاذنا كتاب (العالم ليس عقلا) وطاف باجوائه ومناخاته المشوشة المتناقضة ، حاملا منهاجه العلمي بمثابة ضوء ساطع يسلط على كل زاوية منه ومنعطف وكهف ومفترق سبل طارحا في النور ، لجميع الاعين والعقول ، كل ما يحتويه الكتاب من قيم سلبية واخرى ايجابية فمـــن منطلقات مثالية ميتافيزيقية ومنطلقات مادية ديالكتيكية فمواقف متعارضة غير متجانسة اطلاقا حيال ما يحدث اليوم في بلاد العرب من احداث حاسمة كبرى . كذلك لم ينس الاستاذ مروه ، بدافع من موضوعيته العصافية وروح العدل والانصاف التي هي عنصر اساسي من شخصيته وخلقه ، ان يفي مؤلف (العالم ليس عة لا) ، وهو الاستاذ عبد الله

هل تعلم ؟

● ((ربيع العرب)) :

مختارات من كتاب ضخم للاديب الفرنسي بنوا ميشان ، نقلها الى العربية جورج مصروعة . وجه الاهمية فيها ان المؤلف كان بعيد النظر ، مرهف الحدس ، فجاءت الاحداث مصداقا لما تنبأ به عن العالم العربي في : محادثته مع عبد الناصر ، وزيارته لرشيد عالي الكيلاني ، وحديثه مع شكري القوتلي، ثم مع نوري السعيد . وخاتمة هذه المختارات لمحة عن نزول القوات الاميركية الى لبنان ، عام ١٩٥٨ ، وتأثير هذا التدخل على الصعيد الدولي .

● ((الفروسية العربية)) :

دراسة قيمة للزعيم جوزف سمعان ، قائد الدرك اللبناني السابق ، واحد كبار الضباط في جيش لبنان ، عرض فيها : منشأ الفروسية ، وتأثير العرب في الفروسية الفرنسية ، والفروسية العربية وما تنطوي عليه من السجايا كالشجاعة ، والوفاء ، والسخاء ، والتسامح ، وميزات الفارس الكامل ، والانكحة الشاذة والنكاح الصحيح في الجاهلية ، ومقارنة بين الزواج السياسي والزواج التجاري في الجاهلية ، ومعلومات طريفة عن الحب العذري من حيث هو ينبوع فضائل .

اطلب هذين الكتابين من ((دار المكشوف)) ، بيروت ، ص.ب. : ٥٨١ ، التلفون : ٢٢٤٧٧٠ .

القصيمي ، حقه من التقدير الوافي لمواهبه وطاقاته العقلية الجبارة الخلاقة .

وهل يمكن ان يفوتنا ذكر الفصل الرائع الذي رد به الاستاذ مروه على اراء الدكتور لويس عوض حول « المد » الرومانسي في الادب المصري على انقاض « الجزر » الواقعي المزعوم . افل ما يقال في هذا الرد العلمي المفحم ان البناء الذي ارتجله الدكتور لويس عوض في ظرف معين ، لم يستطع ان يثبت امام الضربات المنطقية الحاسمة التي وجهها اليه قلم الاستاذ حسين .

وبعد ، فهل يعني التنويه بهذه الفصول الثلاثة ان الفصول الاخرى تقص عنها من حيث القيمة في النظر النقدي والتطبيق المنهجي ؟

معاذ الله ان يخطر ببالي مثل هذا المعنى . وانما بدأت بهذه الفصول الثلاثة لانها لا تتعدى بموضوعاتها على العموم نطاق الفكر والنقاش الايديولوجي . فالفصول الاخرى التي تتناول اعمالا ابداعية في الشعر والقصة والمسرحية لا تقل قيمة عن تلك الفصول الثلاثة ، حين نحصر النظر فيما التزمه الاستاذ الناقد في معظم دراساته من هم الكشف عن الموقف الحياتي والايديولوجي .

اراني اردد هذه المسألة للمرة الثانية . ولعلي اعني بها امرا .. ولافله على الفور : فقد شعرت في فصول الكتاب ان هم الكشف عن الموقف الفني بمعنى العلاقة الديالكتيكية بين الذات والموضوع ، وما يتفرع عن هذه العلاقة من قيم فنية وجمالية مختلفة باختلاف كيفيـــة هذه العلاقة واوضاعها المتنوعة ، اقول ان هذا الهم الفني لم يبرز في الدراسات ، بالقوة نفسها التي برز بها الهم الحياتي والايديولوجي . ولم يكن بنسبة واحدة من حيث البروز في سائر الفصول .

على كل حال ، ليس الاستاذ مروه هو المسؤول عن هذا الامر ، ولا المنهج الواقعي العلمي بالطبع . بل هي الظروف التاريخية التي لم تسمح بعد لعلم الفن والجمال ان يصبح بناء نظريا متكاملا .

ومن هنا كان اضطرار استاذنا الناقد الى اطلاق بعض الاحكام الذاتية احيانا في موضوع القيم الفنية دون ان يكون في يديه ما يسند هذه الاحكام بسند موضوعي علمي . مثال على ذلك قوله في مستهل حديثه عن اخر نتاج للشاعر خليل حاوي : « بيادر الجوع ، من حيث هو شعر ، قمة جديدة ، ولا شك ، من قمم شعرنا الحديث » . وفي مكان اخر يقول : « .. ولكن بيادر الجوع عمارة فنية شامخة بين ابنية الشعر الحديث عندنا » . يقينا اني لا اقصد اطلاقا الى مناقشة هذا التقدير الفني . كل همي ان الاحظ كونه تقديرا محض ذاتي . اي انه يخرج من نطاق المنهجية الواقعية العلمية التي التزمها استاذنا الناقد. مع ذلك ، ينبغي ان اعترف له باحدى الالتماعات الفكرية العلمية ، في مجال التقدير الفني الموضوعي . ذلك حين عرض في نظرة عامة لشعر ادونيس في (كتاب التحولات) فلاحظ فيه (تراكم الصور والرموز تراكما تتخلخل به العلاقات الداخلية بينها الى حد ان هذا التراكم الكمي لا يؤدي الى التحول الكيفي) . مرة اخرى اقول اني لست بصدد المناقشة حول صحة هذه الملاحظة او عدم صحتها . فما يهمني في هذا المجال غير فكرة التحول من سياق التراكم الى طور التحول . فهي المفتاح الرئيسي ، فيما اعتقد ، لفهم طبيعة الشعر والفن الشعري وقيمه الاصيلة . فيا حبذا لو كان للاستاذ حسين ان يبقي هذا المفتاح الثمين في يده يستعين به على تحقيق طبيعة الشعر وقيمه الفنية تحقيقا علميا. اذن لكان بوسعه ان يلفت نظر الشاعرين الاصيلين ادونيس وخليل حاوي الى حقيقة جد ثمينة بالنسبة لنشاطهما وانتاجهما . وفحواها ان الشعر الحقيقي الاصيل لا يشعشع ويزدهر الا مع الانطلاق من المنطلقات المادية الديالكتيكية . في حين انه يخبو ويتلاشى في عوالم الضباب المثالي الميتافيزيقي حيث لا حياة ولا حركة . وفي شعر الاثنين ادلة كثيرة واضحة على هذه الحقيقة .

اما بعد ، فيظهر بجلاء مما تقدم اني اخالف صديقي الاستاذ مروه في بعض النقاط والمسائل . وما اظن لهذا الخلاف من فعل سوى انه يثلج حقا صدر الصديق الكريم . فهو الدليل المحسوس بين الادلة المحسوسة الكثيرة جدا على ان المنهجية الواقعية التي يلتزمها ويدافع عنها ليس من طبعها قط ، كما يزعم خصومها ، ان تغلق باب الاجتهاد الشخصي في وجوه النقاد والباحثين . بل انها لتفتحه في وجوههم بابا كبيرا واسعا وعلى مصراعيه .

اعود اذن الى بعض ما لمست من اوجه الخلاف بيه وبيني ، وما هي بالكثيرة ولا بالخطيرة . منها ، مثلا ، قوله في رأس الصفحة (٣٧٨): « .. وهذا التفتيت للشكل عن المضمون ضرورة في مجال النقد لا مفر منها كما تعلمون . » انا اعتقد العكس تماما . هذا « التفتيت » لا ضرورة له البتة ولا هو بالامر الممكن . كل ما في الامر ان الناقد قد يضطر الى تركيز النظر احيانا على الشكل الفني ، واحيانا على المضمون. وفي الحالين لا يستطيع النظر الى اي منهما الا من خلال الاخر . فلا ضرورة اذن الى تفتيت الشكل . بل تقتضي ضرورة البحث الابقاء على هذا الشكل كي يكون النظر ممكنا من خلاله الى المضمون .

وفي الفصل الخاص بمسرحية (الطعام لكل فم) لتوفيق الحكيم. يقول الاستاذ مروه : « ان هذا الصنيع الفني الجميل قد احدث تطويرا صالحا وممتعا لكلا النهجين : الواقعي واللامعقول معا » .

انا اعتقد ان ليس في هذه المسرحية ما يمت بأي نسب ، في اي جزء من اجزائها الى النهج الفني المسمى بـ (اللامعقول) . يخيل لي ان صديقي الاستاذ مروه قد وقع ، دون انتباه ، في التباس حول الطريقة الفنية الطريفة التي شاءت لتوفيق الحكيم ان يبني مسرحيته منطلقا من الاشكال التي رسمها صدفة رشح المياه المتسربة من منزل السبت عطيات ، على جدار منزل السيد حمدي وزوجته سميرة في المسرحية. ان هذه الطريقة الفنية الطريفة قديمة جدا ومعروفة في فن التصوير . ثمة في التاريخ سيد من سادة الفن الواقعي هو ليوناردو دافنشي ، كان يؤم المساكن القديمة ذات الجدران الرطبة ليستوحي منها الاشكال المختلفة التي كانت ترسمها الصدف بفعل من الرطوبة ورشح المياه . ومن الفنانين الواقعيين من كان يستوحي الاشكال التي ترسمها الغيوم في تحركاتها . المهم ان هذه الطريقة لا تمت الى (النهج الفني اللامعقول) باي سبب . حين ننظر بدقة الى المسرحيات من هذا النوع . نجدها مؤلفة من اجزاء كثيرة واحداث كثيرة هي بحدود ذاتها معقولة . لكن العلاقات القائمة بينها هي الشيء اللامعقول . ومن هنا يكون من حقنا ان نستنتج هذه الحقيقة : وهي ان التسلسل اللامعقول بالاحداث هو العامل الفني الحاسم الذي يعطي لتلك الانواع المعروفة طابعها الفني اللامعقول .

ثمة نقاط اخرى ما اظن المجال يسمح لي بعرضها ومناقشتها وما هي بالمهمة جدا . وعلى كل ، احسب ان مثل هذا الحوار مع مثل هذا الكتاب القيم ليس من طبعه ان يستنفد غاياته ابدا ولا ان ينتهي . ليكن حسبي وانا اغلق دفتيه الى حين ، ان ارى الى تلك الصورة اياها تطل علي من خلاله ... اعني صورة المركب التائه على الغوارب وقد امتدت اليه ، اخيرا ، يدان مخلصتان لا يعوزهما الشعور بالمسؤولية ولا الوعي ولا المهارة والقدرة . انه كتاب كنا بامس الحاجة اليه ، ذلك لانه قد ارسى بالفعل جملة من الاسس العلمية ، هي الاسس الرئيسية التي تحول النقد من (بورصة) تتحكم فيها الاهواء والاذواق الفردية ، الى علم ذي منهج واصول .

رضوان الشهال

شعراء نجد المعاصرون

بقلم عبد الله بن ادريس

***

من امتع الدراسات الحديثة في ادبنا العربي المعاصر، هـذه الدراسات التي تحاول ان ترسم صورة كاملة لقطاع من قطاعات الادب العربي في مجال معين كالشعر او النثر او القصة . فان هذا العمل من شأنه ان يحقق قدرا كبيرا من التركيز ، ويكشف الزوايا المتعددة ، ويتيح الفرصة لاعطاء الباحث علامات واضحة لتطور الادب والفكر في مرحلة محدودة في جيل واحد ، وكتاب « شعراء نجد المعاصرون » يحمل هذه الميزة الاساسية ، فهو يختص بالشعر في نجد في العصر الحديث، ومن هنا كانت اهميته في نظر الباحث المعني بدراسات الادب العربي المعاصر وتطوره ، خاصة وان هذا القطاع الممثل في الجزيرة العربية موطن الشعر العربي اساسا لم تصدر عنها دراسات كثيرة تغطي الحاجة الماسة للباحث الى دراسة تطور الشعر فيها والتعرف على الشعراء ، وذلك فيما عدا دراسة عبد الله عبد الجبار التي شملت ادب الجزيرة العربية كلها ، ومن هنا نستطيع ان نعد كتاب (شعراء نجد المعاصرون) من المراجع الاساسية ذات الاهمية امام الباحث في تطور الشعر الحديث في العالم العربي .

وقد حاول الباحث في مستهل دراسته ان يكشف عن مركز «نجد» في الشعر العربي باعتبارها ابرز الاقطار احتفالا بالشعر والشعـراء قديما في الجاهلية وفجر الاسلام « حيث كانت منتدى الشعراء الفسيح ومنتجع الملهمين من عباقرة الفن ، الذين خلفوا للامة العربية ثـروة هائلة من سجلات تاريخهم الادبية الحافلة بكل الوان الحياة .. فلولا شعر زهير بن سلمى وعنترة بن شداد وامثالهما لما عرفنا شيئا عن حرب البسوس ، واشار الى اقدم الشعراء الذين دون شعرهم وحفظ « امرىء القيس بن حجر الكندي » ثم علقمة بن الفحل ، وعمرو بن كلثوم .. واعشى قيس .

وبعد الاسلام لم تتخل نجد عن مكانتها فهناك جرير وذي الـرمة ويزيد بن الطثرية ومروان ابن ابي حفصه وبكر بن النطاح ..

ثم كان دور الشعر واضحا في الدعوة الوهابية المجددة للعقيدة، والتي قامت لتطهير الدين من شوائب الوثنية والخرافات ...

ثم عرض المؤلف لشعر نجد في العصر الحاضر فابان كيف ان شعراء نجد شاركوا في النهضة العربية ومكافحة الاستعمار وفي اعادة بنـاء الامة العربية على اسس من وحدة المشاعر والمصير المشترك وضربوا على الاوتار الحساسة ، واذكوا في النفوس روح البذل والفداء ، ولم يقف شعراء نجد عند نهج الشعر القديم ولكنهم تأثروا النهضة الشعرية التي ظهرت في مصر والشام واستطاعوا ان يتطوروا بالنظم اسلوبـا ومضمونا مع المحافظة على الاصالة والطابع العربي البليغ .

واعان على ذلك النهضة التعليمية والمذياع والصحف ، وكان من اهم ما اعطى شعر نجد روح الاصالة (١) النكبة الفلسطينية (٢) التطورات الهامة التي غيرت النظم السياسية والاجتماعية .

ويصور عبد الله بن ادريس اطوارا ثلاثة مر بها الشعر العربـي النجدي حتى وصل الى مرحلة التحرر من التقليد . يقول : « ومن هنا نجد ان الشعر يتجه رومانتيكيا وواقعيا ، اما الشعر التقليدي فقد دنت شمسه نحو الغروب ولم يعد له وجود يحس احساسا قبوليـا انفعاليا لدى الجماهير القارئة التي وهبت حساسية فنية ذلك لانـه انحسر عنه مد الحياة لما تخلف عن قافلة النظريات الحديثة » . ويمثل الشعر الحديث في اتجاهين او تيارين هما التيار الرومانتكيي والاتجاه الواقعي ، اما الشعراء الرومانتيكيون فلهم احتفاء ومعاناة بالشعـر الوجداني في الحب والعاطفة الغريزية والعاطفة الانسانية ، اما الشعراء الواقعيون فهم المتصلون بحياة الامة ومشاعر الشعب . يقول : « ولا بد للشاعر الواقعي ان يكون شجاعا متفانيا في خدمة مجتمعه روحيـا وماديا ، ذا اهداف نبيلة غير مشوبة بشوائب » .

●

وبعد ان يعرض عبد الله بن ادريس هذه النظرة العامة في اكثر من خمسين صفحة من كتابه ، يقدم لنا مجموعة من الشعراء المعاصرن في نجد يبلغ عددهم ٢٢ شاعرا ثم يقدم المؤلف دراسة عن نفسه بوصفه احد هؤلاء الشعراء .

وكثير من الاسماء التي ترجم لها المؤلف معروفة ومشهورة ونتاجها منثور في صحف العالم العربي امثال الامير عبد الله الفيصل ، ومحمد العامر الرميح ، والعيثميين الثلاثة ، وخالد الفرح ، وسعد البواردي ، وعبد الله القرعاوي وغيرهم .

والمؤلف الشاعر المؤرخ هو من ابرز اعلام الادب في المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية وهو يقوم الان بالاشراف على مجلة الدعوة وله ابحاثه المتعددة واهمها « الشعر والشعراء في الجزيرة العربيه » الذي يعمل فيه منذ عشر سنوات ، وكذلك دراساته عن (النثر والادبـاء الناثرين في الجزيرة العربية) ايضا فضلا عن عشرات من مقالاتـه المنشورة في مجلات العالم العربي ، وقد اشرف منذ سنوات على مجلة المعرفة المحتجبة ، فضلا عن عمله مديرا للتعليم الفني بالوزارة .

ومن عجب ان هذا الباحث الشاعر يقدم نفسه في كتابه بهـذا النموذج من التواضع الجم حيث يقول « مع عدم اقتناعي بشاعريتي او استحقاقي لما يصفونني به ، وجدت الا مانع من ان انشر شيئا من شعري في هذا الكتاب » .

والذي يعرفه النقاد ان عبد الله بن ادريس شاعر مطبوع لـه جولات وجولات في الاندية الادبية وله دواوين شعر جاهزة ومعـدة للطبع وهو عضو في جماعة الادب الحديث بالقاهرة منذ وقت طويل ، وقد ناب عن حكومته في حضور عديد من مهرجانات الشعر ومؤتمرات الادباء في حلب والقاهرة ودمشق .

طالعوا كـل شهر

المجلات الثقافية اللبنانية

الاديـب

الحكمـة

العرفـان

العلـوم

فهي تحمل اليكم النتاج الفكـري الرصين

والابحاث القيمة باقلام خيرة الكتاب والادبـاء

وله مفهوم في الشعر يدل على مدى عمق شاعريته وثقافته معا يقول « انا لا اعد الشعر شعرا ما لم يكن على قدر كبير من التأثير القوي والموسيقية الهادئة الحنون ، والتصوير الصادق والتعبير المنسجم ، وليس بشاعر من لم يكن ذا خيال خصب مجنح وذا انغام عذبة ومعان متساوقة متدفق الشعور عميق الاحساس بجمال الكون والحياة » .

●

وليس عبد الله بن ادريس من الشعراء الذين يجمدون على نسق معين في النظم ولكنه من القدرة بحيث يستطيع ان ينظم على مختلف الفنون والاوزان وهو لا يقف بالشعر عند عاطفته الخاصة ومشاعره الذاتية وانما ينظمه كلما اهتز لحدث من احداث الفكر او الوطنية او العروبة .

وله شعر من شعر التفعيلة تميز بالخصوبة وحسن الاداء بعنوان « صوت الجزائر » :

لا لن نحيد عن الكفاح
ولن نحار ولن نهون
او يستبد بنا السكون
رغم المقاصل والسجون .. الخ.
... ابدا سنزحف للفداء
للثار .. للحق السليب
لنطهر الوطن الحبيب .. الخ.
... يا ابن الجزائر يا شريكي
في الشدائد والرخاء
ومضمخا جرحا تنزى بالدماء .. الخ.

●

وبعد فقد وجدت في كتاب شعراء نجد المعاصرون دراسة نافعة موضوعية ، بذل مؤلفها جهدا مضنيا في سبيل تغطية هذا الجانب من دراسات الشعر الحديث ، بعد ان كان الشعر النجدي بحق حلقة مفقودة في الادب العربي المعاصر وخير الاعمال الادبية ما قدم جديدا وغطى منطقة كانت فراغا .

القاهرة — **انور الجندي**

سبعة ابواب

تأليف : عبد الكريم غلاب

***

قضيت اسبوعا كاملا وانا اقرأ كتاب « سبعة ابواب » لصديق العمر الاخ عبد الكريم غلاب ، ولم تستغرق قراءته هذه المدة الطويلة لانه كتاب طويل ، فان صفحاته لا تزيد على المئتين ، ولكن لانه من ادوع الكتب التي قرأتها ، وانا لا اقرأ الكتب الرائعة فحسب ، ولكنني احياها ايضا .

وليس في حياة الاخ عبد الكريم حادثة او فكرة او عاطفة او خلجة لم يكن لها صدى في حياتي ، اي ليس في حياته اي جديد بالنسبة لي ، ومع ذلك قرأت الكتاب بشغف ندر ان قرأت بمثله كتابا ، لانه بارقة عبقرية عبأ فيها « سجين لعلو » كل مواهبه ككاتب وانسان ومفكر وملاحظ وساخر ومشفق وخبير نفساني ، وهو في نفس الوقت يعامل الالفاظ كأنها جواهر لكل واحد منها مكانه الفني في العقود النفيسة . وتحدث في حياة النبغاء حوادث يكون مفعولها هو المفعول الذي يحدثه عود الثقاب حينما يلمس فتيلة المصباح : التوهج . وكان هذا هو الذي حدث حينما دق رجال الشرطة باب منزل عبد الكريم لينتزعوه من بين افراد عائلته ويلقوا به في سراديب المفاجآت والتحقيقات والكهوف والزنزانات لمدة ستة اشهر ، في تلك الايام الذاهبة حينما كان الاستعمار يلفظ انفاسه وهو يحسب ان المغاربة هم الذين يلفظون انفاسهم .

مضى منذ اللحظة الاولى يتفرس في اعماق هؤلاء الخصوم الجدد الذين ليس بينه وبينهم سابق معرفة ، والتفرس في مثل هذه الاحوال مفيد ، لتصيد نقط الضعف ومعرفة ما يدور في الخلد استعدادا لمجابهته ، مضى يدرس اغوارهم باحثا منقبا ، واستأنس لذلك متوقعا ان يعثر على حقائق لا بد ان تكون خطيرة في مثل هذه الاحوال ، واذا به يكشف شخصيات تافهة ورخيصة وحوادث تبعث على الضحك ، بل والاغراق فيه .

فحينما كان المترجم ينقل الى رؤسائه ما ورد في الاوراق التي صادروها اكتشف عبد الكريم انه هو الذي وقع في المحنة ، لانه شبه امي ، (وانه يحاول ان يخفي عن رؤسائه اميته فيستهين بما في الاوراق ، وضاق ذرعا بهذه المحنة وود لو وجد السبيل الى الانصراف الى « تتبع لص او سكران » ليتخلص من هذا العذاب) .

وما كتبه الاخ عبد الكريم عن « الكهف » في مركز الشرطة يعتبر من اروع ما كتب باللغة العربية على الاطلاق ، ويعتبر ايضا لوحة ثمينة لا يمكن ان يصور رسام ابدع منها ، لان الرسم لا يمس الحواس الخمس ، فتراه وقد اصطلح عليه . الظلم والظلام ومفاجأة من كانوا يعتقلون معه من السكارى والعاهرات وقد انتشرت الروائح النتنة وبدأت المشاحنات ثم المشاغبات ثم الضرب والقيء ، وعبد الكريم قابع في زاويته يحاول ان يجعل من حذائه وسادة ويتلمس الارض الرطبة القاسية ، قبل كل هذا في سبيل عزة بلاده ... ونال منه الاعياء ، ولكن شيئا واحدا لم يقبله وهو ان يهدأ فكره .. ففي بؤرة العذاب هذه ، مضى يدرس ما يجري حواليه ، يحلل النفسيات والبواعث ، ووصل الى حقيقة رائعة وهي ان جميع نزلاء الكهف من وطنيين وسكارى وعاهرات تجمعهم رابطة واحدة هي انهم هاربون من قسوة الواقع ، من قسوة الاستعمار او قسوة الفقر والعوز او قسوة الحياة ذاتها .

ويمضي الى التحقيق بنفس العقل الواعي والروح الساخرة ، ويتلمس الطريق بسهولة الى نقط السخف في نفوس الجبابرة الصغار. ويركن السجين المحقق بقوة الفكر فينصرف هذا الى الحديث عن فاس ومباهجها وذكرياته بها وتمنيه ان ينقل للعمل فيها .

ويكتب عبد الكريم هذه الكلمة الطافحة بالايمان : قلت في نفسي ستنقل للعمل في فرنسا ، فهي اولى بك .

يقول عبد الكريم : بعد ان صفقت من ورائه بوابة الزنزانة التي سوف تأسره ستة اشهر كاملة ـ ان من حسن الحظ ان ابواب السجن لا يمكن اقفالها على الفكر . ويخيل الي ان عبد الكريم عقد ـ اول ما قبع في الزنزانة ـ « جلسة عمل » مع نفسه ، واستقر على انه بالرغم من ان رجال الاستعمار الفرنسي قد اعتقلوه لنشاطه الوطني فانه اصطلح مع نفسه ـ في ركود الزنزانة ـ انه قد نزل السجن في مهمة.. وهذه المهمة هي مهمة الاديب والمفكر والعالم النفساني ، وبدلا من ان يقضي فكره يومه في مثل خمول جسمه نهض لاداء هذه المهمة ، واداها خير اداء .

ويحتوي الكتاب على وصف رائع للاحداث التي كانت تقوم من آن للاخر في السجن بين الساجين ، وبينهم وبين الحراس والسجانين، ولم يترك شخصا الا مضى يحلل شخصيته تحليلا دقيقا ، ولم يترك شيئا الا مضى يتأمله تأملا عميقا ويحلله ، مثل المعاني التي يتركها في نفس السجين فرقعة المزاليج ، والفرق بين ظلام الدنيا وظلام السجن واثر تلاوة القرآن فجأة في عنبر بعيد ، بل وتصرفات فأر صغير في ظلام الكهف حينما سرق كسرة خبز له ، والمقارنة بين الموظفين الفرنسيين والموظفين المغاربة في السجن ، واستخلاص نماذج بشرية عجيبة من بين المسجونين ورجال الشرطة والاعوان .

وهكذا حطم عبد الكريم فراغ حياة السجن وجعله مزدحما بالتحليلات والتأملات والافكار والملاحظات الساخرة ، واستطاع بذلك

(*) نشرته دار المعارف بمصر وقدم له المرحوم الدكتور محمد مندور

ان يجعل من عذاب السجن رسالة قام بادائها ، وفوت على الاستعمار ما رمى اليه من حشره في حياة راكدة ، فقلب زنزانته الضيقة الساكنة الى مدرسة واسعة الرحاب حافلة بحياة الفكر ، ولو كان عابدا لجعلها محرابا لصلواته .

ولعل ان تمر فترة طويلة في تاريخ الاداب قبل ان يقضي مفكر عبقري ستة اشهر في زنزانة ليعتصر منها هذه التجارب ويتوهج فيها فكره ، ويخرج على الناس بكتاب رائع مثل كتاب «سبعة ابواب» فاهتبلها اخونا فرصة غالية لينشر من عذابه ثمرة سوف تبقى خالدة في الادب العربي .

وتمتاز القصة بدقة الوصف واشراق التعبير وعمق الملاحظةوشدة الانتباه ، وتعتبر تخليدا للحياة التي عاشها على مختلف العهود الاف من الشبان المغاربة ـ وربما من شيوخهم ايضا ـ في معتقلات الحماية الفرنسية دون ان يسجلها احد او دون ان يسجلها أحد هذا التسجيل الواعي المبدع ، وهو تعبير متوهج عن يقظة الفكر ، واكتمال النضوج، واخضاع التعبير المشرق للفتات الذهن وشوارد المعاني ...

وتتطاول الاسابيع ثم الشهور وتشعر بان الصحفي والمفكر والعالم النفساني ، قد الم بكل ما يمكن الالمام به ، اي انه ادى مهمته وانتهى منها ، فشعر بان الملل بدأ يساوره ، ويخرج رفيقاه في الزنزانة من السجن ، وهي فترة لا تطول ، اذ سرعان ما يأتي اليوم الذي يفرقع فيه مزلاج الزنزانة ليلفظ الفيلسوف الى .. الشارع .

ويتيه من جديد ، لقد نسي حياة الحرية ونسي رحابة الدنيا ، ونسي ... ولكنه حر ، والى الابد .

بقيت ملاحظة واحدة ـ او مؤاخذة واحدة ـ ذلك انني كنت اقرأ في اهتمام واشفاق زيارة زوجته وابنه ، وكانت هذه الزيارة تتم اسبوعيا ، وذات مرة اخبرته بان اخاه الثالث قد اعتقل ، وبذلك بقيت والدته ـ اطال الله عمرها ـ وحيدة ، ويأتي اسبوع اخر فتخبره بانها لن تستطيع ان تزوره في الاسبوع القادم لان اباها قد اعتقل ، ووالدتها في حاجة الى رعايتها ... فانحدرت من مقلتي دمعة كبيرة دون شعور تقديرا للسيدة الباسلة الصامدة ، ثم استعدت السيطرة على مشاعري ممنيا نفسي بان انتقم لهذه الدمعة ، اثناء قراءة الفصل الذي سوف يصف فرحة عودته الى المنزل ، ولكنه خيب املي ...

ولعله ان يحقق هذا الامل في طبعة قادمة .

الرباط — عبد المجيد بن جلون

شباب وسراب

شعر : محمد علي الخفاجي

***

اذا قلنا ان الطابع الاكثر شيوعا في هذا الديوان هو الطابع الرومانسي ، فلا يملي علينا هذا القول ان معظم قصائد الشاعر العراقي الشاب محمد علي الخفاجي تدور حول الحب والطبيعة والحيرة والقلق، فهذه مجرد موضوعات كان التباين حولها وما زال شائعا بحسب نوع (الموقف الفني) الذي تقفه المدارس الادبية او يقفه الشاعر منها ،وانما لان شعر الخفاجي لا يكشف عن سوى تلك الابعاد التي عرف بها الشعر الرومانسي والتي غدت تقليدية لا بسبب بعدها عن روح عصرنا فحسب بل ولفرط ما تداولها عشرات الشعراء حتى لم يعد فيها زيادة لمستزيد الا بالقدر الذي يؤكد فيه الشاعر شخصيته الفنية ضمن اطار متداول محدد الالوان .

ومع ذلك ، فالشاعر الخفاجي لم يكن في هذا النزوع مسوقا بمحض التقليد ، اذ ليس ثمة ما يدعو للشك في انه لو لم يكن مخلصا في هذا النزوع لنفسه ومتأثرا تأثرا عفويا بقراءاته الشعرية التي كان معظمها من الشعر الرومانسي الذي صادف من نفسه هوى ، لآثر ان يحاكي الشعر القديم سيما وان له على نظم هذا الشعر قدرة يشهد بها البناء الكلاسيكي المتين في بعض قصائده ، او لآثر ـ كما يفعل كثيرون ـ ان يجتر بعض القوالب الحديثة الجاهزة موهما بذلك نفسه والقراء انه بات شاعرا حديثا مجددا .

فالشاعر اذ لم يفعل هذا او ذاك إنما يدلل لا على محاكاته للشعر الرومانسي في ابعاده التقليدية فحسب ، بل وعلى ان في هذه الابعاد وقد تبلورت حولها قراءاته الشعرية ، مرآة لعواطفه ومجلى لتجاربه الشخصية ، فهو شاعر يحتل الحرمان والالم من شعره القسط الاوفى ويخفق قلبه بالحب الملتاع والشوق اللاهب :

نامي هنا بين وريقاتي ولوني معتم صفحاتي
خضراء ذات الامل المرتجى هات مواسم الهوى هاتي
بيادري ماتت ومات الجوى وابهت الشحوب نبراسي

فاذا ما استجابت الحبيبة ولبت نداء الشوق حال بينهما الاحجام ، فللشاعر ـ شان سائر الرومانسيين ـ شغف بالحرمان وتوق للعذاب ، واجمل الحب عنده ما ظل وهما وسرابا لا ينال :

سيظل يسحقني التمني فاليك يا حواء عني
لا زلت يا عباقة النفحات في شكي وظني

ومع ذلك ، فربما ارتاح الى ان يعيد الحكاية القديمة فيلقي اللوم على عاتق الحبيبة متهما اياها بالغدر والغرور :

قولي وكل الذي اهواه اكرهه ما عاد يغري ولا قلبي به دنف
قولي وكل نساء الخلق امقتها فكلهم قد تبنى الغدر واحترفوا

بل انه ليتعجل كر السنين فاذا هو شيخ حكيم نضبت فيه الصبوات وجف الشباب ، فلا الحب يستثيره ولا يهزه الجمال :

لا تفري مذعورة انا شيخ وملاك بعفتي وسلامي
رب شوك يمد غصنه يحمي رقة الورد من خطى الاقدام
فتعالي يا قطتي واستريحي وافرشي الحجر بالعطور ونامي
كل موج وان تعالى سيفنى عند شطيه ميت الاحلام

ويذهب هذا الشيخ الى ابعد مدى من القناعة والحرمان ، ويغلو في ذلك غلوا عظيما ، حتى لتنعكس الاية او تكاد ، فيخشى على سمعته العذراء ! من حب لم يعد سوى (تهمة كبرى) :

قلبي حطامة امال رجعت به
شلوا تحز به الالام والاسف
لم يبق من سمعتي العذرا سوى نتف
اذ كيف احتاط حتى تسلم النتف

غير ان لحظات الصدق ـ وما اكثرها ـ لا تلبث ، رغم هذا كله ، ان تفضح حقيقة هذا التعفف المزعوم كاشفة عن الرغبات الدفينة والشوق المكبوت :

انا ضام لجدول بين نهديك خضيل بطيبه انا ضامي
من من يضمك بين الساعدين غدا
او يعصر النهد او للثغر يرتشف
هذي مساند نهديك التي بقيت
عذراء . اني على الاجرام معترف
يدي التي غلفت في الصدر تشهد لي
كم قطعت من عراه وهي ترتجف
وحلمتاك التي شوقتها بفمي
وانت بين يدي والنار واللهف

وحتى موقف الشاعر من الطبيعة نوشك أن نقول انه لا يكاد ينفصل عن موقفه من المرأة ، فربما قامت بين الموقفين علاقة غير مباشرة اساسها ان الشاعر وقد حرم من لذة الحب ، واستطاب هو هذا الحرمان ، فان طاقاته وانفعالاته لا تلبث ان تجد لها متنفسا في حب الطبيعة ، يشهد بذلك اقتران الوصف عنده بالحرمان : (احب ولكن من يلبي لمنيتي)

وتكراره الالفاظ (احب ، اعشق ، اهوى) في قصيدة وصفية جميلة يقول فيها :

احب انحدار الشمس عند غروبها
وفي الدرب ان نامت على ركن ثنية
احب انحباس البدر ما بين غيمة
واهوى انفلات النور من بين سعفة
احب انتشاء النهر من لثغ موجة
احب اكتواء الليل من وهج شمعة
ومر الكناري فوق حقل مذهب
من القمح مخ ضر من الآس منبت
وخطو الصبايا الحور يعبق عطرها
بقايا فراشات على خد وردة
ودفقة وهج الشمس تهمي بنورها
اذا ما احتمى ظل الى جذع نخلة
احب انحدار الصخر من فوق قمة
لينعس في سفح ويغفو بربوة
احب جنون الريح تلوي بحداة
وتحليق شحرور بهداة نسمة
واهوى اخضلال الحقل زف بخضرة
واعشق سح الماء من نضح جرة

وهذه صور على حظ طيب من الابداع والطرافة ، في رسمها فن وجهد في التظليل والتلوين وتخير الزوايا رغم ما قد يبدو في تسلسل الصور من التفكك والتشتت . والخفاجي في هذه القصيدة وسائر قصائده الوصفية يسهم في احياء فن الوصف الذي يكاد يندثر.وربما تأثر في بعض قصائده الوصفية بالشاعر نزار قباني فهو اذ يقول :

بلادي سوامق تحكي العلا شموخا من المجد والرفعة
عقودا من الماس منظومة تموج بافوافها لوحتي
بلادي حشود من الياسمين بيادر للحسن .. للفتنة

قد يذكرنا بقصيدة نزار (بلادي) التي تستوطن فيها النجوم والعصافير ويحضن حدودها الياسمين والندى وتهوى فيها الصخور وتدمن الدوالي . ولنزار عند شاعرنا المكانة التي لا تدانيها مكانة اي شاعر اخر ، فهو متأثر به في رسم الصورة :

تلف عباءاتها فوقه لتحبس عطر الجمال الفتي
تصوف في عنفوان الشباب فانحل من عزلة الوحدة

وفي انتقاء اللفظة او تكرارها :

تزهو مع التوليب بين حدائقي
حبلى بشوق الشوق تسكن داري
تهتز يا لروعة الروعة
فاملأ من لحن العتابا معابدي
مطر مطر وموميض البرق يكحل الليل رموشه

وفي طرافة الاداء وعذوبة الموسيقى :

اتخفين الهوى عني وهذا الوجد قد ثرثر
واعلن ثورة العذرا وفتق شالها الاخضر

وانه ليحاكي نزارا في كافة مراحله الشعرية فيتأثر بالنغمةالهادئة المتعبة التي تشيع في ديوان (حبيبتي) فيقول :

حبيبتي لو سألوا عنا لو سألوا كيف تعارفنا
كيف جمعنا من شتيت الهوى وبعد ذاك الوهم صدقنا
واين صار بيننا الملتقى حبيبتي لو سألوا عنا
قولي لهم سد علي الطريق وقال لي حبيبتي انت

غير ان فرقا جوهريا بين الشاعرين يظل قائما ، هو الفرق بين شاعر وجد في المرأة شبعا وريا واخر لم تكن عنده سوى رمز للعذاب والحرمان ، يشير الى ذلك الخفاجي بقوله :

لا تقولي نزار انت فعذرا اذ غرام المجون ليس غرامي

فالتشابه الواضح بين اداء الشاعرين لا يدل على تشابه في موقفهما من المرأة ، بل ربما كان تطلع الخفاجي الى عبارة نزار واسلوبه يشي بلهفته الى ان ينال من المرأة ما كان قد ناله نزار .

واذا ما استثنينا هذا الطابع النزاري في (شباب وسراب) فان للشاعر اداته التي توشك ان تكتمل لولا ما يصادفنا في بعض قصائده من هنات فنية يسيرة اهمها تعجله اقامة البيت على غير الوجه السليم بحشر عبارة مقسرة لا تضيف جديدا كقوله :

حواء يا حشد النضار فهمتها شرقية النيران بل من نار
من عهد هارون الرشيد احبها من عهد ادم من عهود النار

او تشبثه بالتكرار الوصفي الجامد الذي لا توحي فيه الصورة بانفعال او عاطفة كقوله :

يا صدرها مزمجر مثار
يود لو تشقق الازار
يا نهدها قصدير ام فخار
ام سوسن توج جلنار

او استسلامه ـ في احيان قليلة ـ للاداء الكلاسيكي الجاهز :

ما لي اراك تجاذب الورقاء انات النحيب
بالامس قد كان الشباب يميد بالفصن الرطيب

او تنافر عناصر الصورة من الداخل كقوله :

والسنبل الذهبي اوحل خطوتي
تتزاحم السيقان هذا موحل بالنور هذا محزق بالنار

. . . . . .

خمسون عاما جئن بابك صادحات بالكهولة

ولسنا ندري كيف يستحيل النور وحلا بله ان يوحل خطى الشاعر، ولا كيف تصدح الخمسون بالكهولة .

او تعجله كتابة قصيدتين من الشعر الحر متوهما ان هذا الشعر ليس سوى اشطر غير متساوية الطول كما يزعم التقليديون .

او وقوع بعض الاخطاء العروضية ، كجمعه بين المتقارب والسريع في بيت واحد :

اموت وبي رشة من عبير وموسمي ثر ووردي ندي

والزحاف الثقيل المستكره في (السريع) :

هات مواسم الهوى هاتي
شمعا يضيء بالهوى غرفتي
واين صار بيننا الملتقى

والانتقال سهوا من خمس تفعيلات الى اربع في قصيدة (جاهلة)

ومع ذلك نزعم ان بعض الهنات سببها التعجل وعدم معاودة النظر في الشعر قبل دفعه للطبع ، فان للشاعر قدرة طيبة وامكانيات واعدة تشهد بها قصائد مثل : (احب ولكن ، الشموع المرتعشة في الليل ، شتاء ورتابة ، اليوم الاخير ، السمعة المحتضرة ، خريف) . والامل وطيد ان يأخذ الشاعر نفسه بالانفتاح الجاد على ما استحدث في عالم الشعر وان يطور فنه الى المستوى الاكثر اكتمالا .

البصرة

عبد الجبار عباس

في البحرين

تطلب ((الاداب)) وكتب ((دار الاداب))

من

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبي